الأغاني

لحضرة صاحب العزة عبد الرحمن فهمى بك

الغناء من الشئون الكمالية فى عصرنا أو فى عصور تاريخه كلها، إلا أنه أصبح فى أيامنا متصلا اتصالا تاما بأسماع الناس وأفئدتهم جميعا بواسطة المذياع، وهو الآن أداة من أدوات المنازل والقهاوى وكل محل عام أو خاص .

وأصبح ما يحمله للناس من غناء وألحان أكبر وأضخم مما يحمله من صنوف المذاعات الأخرى من علم وتربية وفن وتدين وأخلاق وأدب .

فإذا أصلح هذا الفن الجميل واستقام أثره فى الناس أصلحنا به شيئا كثيرا . ولقد جربت بنفسى — ولا يحدثك مثل خبير — صورة صالحة من صور الغناء والشعر والأناشيد والمواليا المملوءة بالغذاء الروحى فى النهضة الوطنية ، فلقد كان لها شأن كبير فى استقامة السبيل وصرف الشبان عن اللهو واللعب إلى أداء واجبهم خير أداء من العمل المنتج وإحياء الضمير العام وإلهام القلوب سر النهضة ونجواها .

وإن أنس لا أنسى ذلك الغزل الرقيق المعانى الذى كان يخلص منه الشاعر أو المنشد إلى ما يريد من معانى الوطنية وآيات الجلال جريا على سنة الشعراء فى استهلالهم بالغزل الرقيق إلى ما يقصدون .

قد يقال مالنا ولمثل هذه المناسبة وليس بموجود مثلها الآن لتكون الأغانى لها كما كانت نعم المعين . وهذا الاعتراض كان من الأسباب التى أملت على جوابى فى هذه الكلمة المتواضعة .

نتحدث الآن فى إصلاح الأغانى العامة وهى غير الأغانى الخاصة التى تكون للأفراد فى خلواتهم وطربهم ولا تتعداهم الى الإطلاق والعموم . فهذه لا شأن لى بها لأنها لأصحابها وحسب . إنما الشأن والقول فى الدواعى والآثار العامة للاغانى والتطريب والموسيقى التى يشترك فى سماعها الناس جميعا .

وهذه هي التي يجب أن يسمع فيها رأى طلاب الإصلاح ونقد الناقدين، لأنها قد خرجت بمقتضى منطق هذا الإطلاق من هوى أصحابها إلى رأى الخاصة ليحكموا في شأنها ما يحكمون.

أبيحت قراءة القرآن بالقراءات والألحان والصوت الحسن بما لا يتعدى الوقار الواجب والأدب المتبع، فهل ذلك لأن طبيعة الغناء والموسيقى طبيعة ماجنة لعوب لا تتعلق إلا بالهزل من القول والعبث من المعاني، أم أنها صناعة أجيز أن تتعلق بأشرف كلام عرفه البشر؟

أباح صاحب الشريعة الاسلامية صلى الله عليه وسلم لمؤذنه بلال الحبشي أن يؤذن في الناس بالصوت الحسن واللحن الحسن، فهل ذلك لأن الآذان كلام هزيل ومعنى هزيل أم انه ذلك الإعلام للناس عن ميقات فروض الله فتجب له الحرمة والتوقير ولم ير الرسول أن ذلك التطريب يخرج بالآذان عن حرمته وتوقيره ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعرى لما أعجبه صوته "لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود" فهل كان ذلك امتداحا من الرسول للموسيقى والصوت الحسن أم سخرية ؟ وداود هو النبي الذى كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس كل أسبوع ليقرأ الزبور على الناس بهذه الأنغام الرخيمة الساحرة وكان هو يتأثر بها إلى حد الغيبوبة .

عدّ الفلاسفة الموسيقى والغناء والشعر شطرا قويا من الفلسفة الأدبية، وها هم جميعا قد ألفوا فيها وجوّدوا من بطليموس إلى أفلاطون إلى أرسطو إلى الشيخ الرئيس ابن سينا إلى أبي نصر الفارابي الى غيرهم من سابقيهم ولاحقيهم . فهل وقع تأليفهم وتجويدهم على شيء للعبث وأداة للهزل والخلاعة والتراخى أم لرياضة نفسية تربى الخلق والذوق وملكة الجمال وتدفع إلى القوة والفضائل جميعا ؟

وهل كان الميراث الضخم الذى ورثناه عن هذه الانسانية المهذبة الكاملة، ميراث الموسيقى والأغانى ، هزيلا إلى حد أن يجعله المحترفون حبسا على هذه الأغانى الحالية من حب حيانى وغرام شهوى وخداع وسرقة أعراض وألفاظ سوقيــة ومعان مريضة ومعــاقرة ومساكرة وصهبــاء ؟

وهل ورثنا هذا النعيم الروحى لنجعله كملابس الصالات تلبسها اللعوب ثم لا يغنى عن حقيقتها ذلك التزييف شيئا ؟

سايرت الموسيقى - كما أسلفت - القرآن والآذان ومزامير داود وقدّسها الفلاسفة فجعلوها - كما أسلفت — غرضا من أغراضهم النبيــلة وحسّنوا العقيــدة فيهــا فجعلوها طبا لبعض الأمراض كالحزن والجبن والحدة والشذوذ الخلق والكآبة ، بل صديقا قويا لبعض دعائم الحياة الكبرى كالحرب والسياسة.

حكى أبو نصر الفارابى فى كتابه "أدب السماع" ما معناه أن أحد ملوك اليونان قد رأى أن ناحية من نواحى بلاده دخل على نفوس أهلها الكسل والجبن فبعث اليهم بفريق من الموسيقيين أسمعوهم ألحانا معينة فأيقظوا بها ما كان قد غفل من طباعهم ونام من أخلاقهم . وقال أفلاطون "من حزن فليسمع الموسيقى" وقال صاحب العقد الفريد "قال الأطباء إن الصوت الحسن يسرى فى الجسم ويجرى فى العروق فيصفو له الدم ويرتاح له القلب وتنمو له النفس وتهتز له الجوارح" .

وقد زاد أرسطو على ذلك بما تعلم منه أن صناعة الألحان كانت سببا فى صناعة الشعر فقد جاء فى كتابه عن الشعر الذى لخصه وترجمه الفيلسوف ابن رشد قوله "وأما العلة الثانية المولدة للشعر فالتذاذ النفس بالوزن والألحان . . " إلى أن قال " فالتذاذ النفس بالطبع بالمحاكاة والألحان والأوزان هى السبب فى وجود النزعات الشعرية وبخاصة عند الفطر الفائقة " .

ولم يجد نساء الاسلام شيئا يكرمن به النبى صلى الله عليه وسلم عند لقائه غير الغناء والشعر فقد استقبلنه بالنشيد المعروف :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكن يحرضن الشجعان على منازلة الأقران ، فمن ذلك انشاد عفيرة بنت عفان لقومها :

و إن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكم طيب العروس فإنما خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعدا وسحقا للذى ليس نافعا ويختال يمشى بيننا مشية الفحل

وهاك أنشودة جميلة تحث على محبة الأولاد والفناء فى تربيتهم ، قال الشاعر :

لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض

وكذلك كشف لنا عن بعض نواحى تربية المرأة العربية لطفلها وما تسمعه له من ألفاظ مجيدة فى طفولته ليعتادها حسا ومعنى. قالت فاطمة بنت أسد وهى ترقص طفلها وتنشده :

أنت تكون ماجد نبيل اذا تهب شمأل بليل

وكذلك السياسة الوطنية قال شوقى :

قل للبين مقال صدق واقتعد ذرع الشباب يضيق بالنصاح
أنتم بنو اليوم العصيب نشأتم فى قصف أنواء وعصف رياح
ورأيتم الوطن المؤلف صخرة فى الحادثات وسيلها المجتاح
وشهدتموصدع الصفوف وماجنى من أمر مفتات ونهى وقاح
صوت الشعوب من الزئير مجما فإذا تفرق كان بعض نباح

وفى الغزل الرشيق ذى المعانى السامية يقول البهاء زهير :

جزى الله عنى الحب خيرا فإنه به ازداد خيرى فى الأنام وعلیائى
وصيرنى ذكرا جميلا لأننى أحسن أفعالى لتحسن أسمائى

وقوله :

وما العشق فى الإنسان إلا فضيلة تدمث من أخلاقه وتلطف

وقوله :

أعشق الحسن والملاحة والظر ف وأهوى مكارم الأخلاق

وبعد فما اخترته من هذه الأغانى والأشعار هو كتمثيل ، على أن الشعر والغناء يتسعان لأغراض الحياة الشريفة كلها ومنها الحب الشريف كما سمعتم وكل هذه الأغراض ليست معروفة فى أغانينا الحالية جملة وتفصيلا .

وعندى أن التحرج والتردد فى سماع الأغانى ممن احترفوها فى صدر الاسلام وأخذوا ألحانها عن الروم والفرس والرومان وحصروها فى دائرة الغزل والمجون ، أقول إن هذا التحرج من العظماء كان لما قدروه من أن الغناء على صورته هذه اذا شاع وذاع قد يصبح دافعا الى اللهو والعبث واذا شاع العبث انصرف الناس اليه . وقد فرق عمر بن الخطاب فى عبارته المعروفة بين الغناء الذى يصح سماعه وهو الذى يعفو الله عنه . أى أنه يكون فى غرض نبيل وبين الغناء الذى لا يصح سماعه وهو الذى لا يعفو الله عنه . أى أنه يكون فى غرض عابث سخيف . وهذه قولة معاوية وقد سمع غناء "لا بأس من سماع الغناء مع حكمة الشعر". ومعروف أن حكمة الشعر لا تكون إلا فى خلق كريم أو حب فاضل أو حكمة باقية.

قلنا إن من دواعى الغناء والموسيقى تسلية النفس وطرب الفؤاد وأعتقد أنه سائغ أن نقول إن جميع الأغانى الغزلية يلتمس فيها ذلك المعنى بسهولة . فالغزل أرق أنواع الشعر وأقربها الى النفس وأدناها من الفؤاد. وكل انسان يقدر الغزل فى نفسه تقديرا خاصا و يفهم مراميه بوجدانه ووحى نفسه . وهذا صوفى زاهد فانٍ فى عبادة الله يقول الغزل الرقيق فى المعنى الرشيق هو الشيخ ابن الفارض إمام الغزليين والصوفيين ، فاذا قال مثلا :

أبرق سرى من جانب الغور لامع   أم ارتفعت عن وجه سلمى البراقع

لا نشك فى أن ابن الفارض حب حبا إلهيا . ولكن هذا الغزل اذا سمعه غيره ترجمه نفسه بمعنى قائم فيها ؛ فالعاشق البرىء فى عشقه يترجمه على أنه عشق برىء والماجن السادر فى مجونه يترجمه بالمجون واللهو والخلاعة واللذة الشهوية ، ولذلك عكف عليه المغنون المحترفون للكسب والارتزاق ، ولم يجدوا لغة يتغنون بها إلا لغة الغزل . والمغنى كل همه أن يتطرب و يتظرف و يدخل بغنائه الى قلوب سامعيه ولاسيما بعد أن صار الغناء حرفة ومرتزقا من القيان والموالى أمثال عزة الميلاء ونشيط الفارسى وطويس والغريض ومعبد فى الصدر الأول . وقفى على أثرهم وزاد عليهم الموصليون ابراهيم وابنه اسحاق وابنـه حماد فى العهد العباسى ، ثم "زرياب" فى الأندلس .

على أن الغزل بسحره لم يكن صالحا لطرب النفس فى كل الأوقات اطلاقا ، لأنها إذا غمرها معنى من معانى الحياة السامية أو تذكر الآخرة فإن سماع الغزل حينئذ لا يغنى عن ذلك شيئا بل تطلب النفس طربا آخر . أى أنه لا يصح أن يقال للناس كل وقت و بمناسبة و بغير مناسبة فقد تكون الظروف جدية بحتة لا يصح أن يكون الغزل لغتها وخطابها . ومن ذلك نحكم بأنه من الواجب التنويع فى أغانينا بما يناسب الظروف والأحوال لا أن تفرض لغة حب فيها على الناس فرضا فى كل وقت ولحظة . فقد تحدثوا عن الرشيد بأنه جمع ليلة المغنين فأسمعوه فلم يطرب لأحد منهم ولكنه طرب وأغرق فى الطرب حين سمع مسكينا المدنى يغنى :

قف بالمنـزل ساعة فتأمل   فسوف أحمل للبلى فى محمل

هذا وشىء آخر قد يكون سببا فى أن هؤلاء المغنين السابقين نأوا بجانبهم عن غير الغزل والتشبيب والعشق فى غنائهم . ذلك أنهم لم يكونوا من أصحاب الأمر والرأى والحكم بمنزلة غيرهم من الطبقات التى تتحدث عن الحياة وشئونها وسياستها وأخلاق بنيها كالفقهاء والأئمة والكتاب والشعراء الأدبيين ، وربما كان الغناء لا يسمع غالبا والمغنى لا يطلب إلا فى وقت الفراغ والدعة لقضاء الوقت فى السرور والطرب بعد العمل وكد الحياة فلم تكن صناعتهم يومئذ من الصناعات التى تدخل فى جد الحياة وتقوم سبلها .

ويظهر أن هذه المعانى هى التى سيطرت على كاتب العمران والاجتماع فى الشرق عبدالرحمن بن خلدون فى وصفه صناعة الغناء بقوله "وهذه الصناعة آخر ما يحدث فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والمرح" .

قد يتوارى المغنون فى هذا الزمن خلف أولئك المغنين الذين ذكرت بعض أسمائهم فى أن لغتهم كانت لغة غزلية بحتة فى غنائهم، وأن اللغة الغزلية والمعانى الحياء التى يستعملونها الآن فى الغناء هى على قدر الزمن وأهله، قد يقال ذلك ولكنا نعلم أن زمن المغنين الغزليين السابقين هو الزمن الذى وصفنا فيه قدر صناعتهم وأثرها فى الحياة فلم يكن الغناء فى زمنهم شعبيا عاما بل كانت المغنية أو المغنى غالبا خصوصية من خصوصيات رجل واحد أو أسرة واحدة فيقال مثلا هذا مغنى الوليد وذلك مغنى اليزيد وهذه مغنية البرامكة ، فلم يكن للغناء يومئذ ذلك الذيوع العام الذى نجده له فى أيامنا. وقد أسلفت أن ما يسمع الناس منه بواسطة المذياع كثير وغيره قليل حتى رأى بعض الأدباء رأيا خاصا له هو الاستغناء عن لغة هذه الأغانى جملة وقصر الطرب على الموسيقى البحتة، فعيش الناس بلا غناء أفضل لهم من غناء هذا شأنه . وأنا لا أذهب إلى هذا الرأى لأنه لو عمل به نكون كمن أجهز على جريح يرجى له الشفاء وقد يكون بعد ذلك من النافعين .

يجب أن نرتفع بالأغانى والمغنين عن هذه المنزلة فيتناول غناؤنا كل عيب من عيوب حياتنا بإعطائه ما يناسبه من التقويم والإصلاح لأنها من أدب عامة الشعب ولها عليهم سلطان كبير . ولا بأس من بقاء لغة الحب انما تكون لغة سليمة لها معان عفة واضحة كما ضربنا لك المثل بغزل من قول البهاء زهير :

يجب أن تتناول أغانينا اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وحسن المعاشرة والمودة فى القربى وحب الشرف والكبرياء القومى والوفاء للوالدين والزوجة والأولاد ، ورعاية الحرمات والذمم التى تقطعت بها الأسباب وذم الفحش وخيانة العرض والترغيب فى الزواج وذم الطلاق إلا لسبب سائغ وامتداح العفة والشرف كما قالت السيده عائشة التيمورية :

بيد العفاف أصون عز حجابى وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرة وقادة وقريحة نقادة قد كملت آدابى

أرى أخيرا أن يسن تشريع خاص لهذه الصناعة يكون هو القاضى العادل الذى يقضى لنا فى هذه المشكلة الاجتماعية ، على أن يحاط هذا التشريع برقابة قوية تسهر على تنفيذه ، وهنالك يتبارى الأدباء فى وضع الأغانى الجديدة وفى اختيار لتقويم الصالح منها وفى تأليف الروايات الغنائية الفائقة. وهذا هو ما أراه اليوم كاجمال للقول فى الأغانى وفى إصلاح هذه الصناعة الشريفة .

عبد الرحمن فهمى